الفصل الثالث
أسلوب ابن حزم

لعل أظهر ما يطالع الباحث فى تراث ابن حزم هو جودة الأسلوب الذى صيغ به هذا التراث – وخصوصا ما يتعلق منه بالأدب شعرا ونثرا – فإشراق عباراته، ونضرة كلماته تنم عن قراءات واسعة الأطراف فى كتب اللغة والأدب وكثرة استظهاره روائع المنظوم والنثور، فضلا عن موهبته الأدبية جعلته يرتجل الشعر على البديهة، ويصوغ مكنون فكره بعبارات تتخللها لمسة الحسن والجمال.. فهو – بحق – «من الفصحاء الأبيناء الذين يمتزج كلامهم بأجزاء النفس سهولة ورِقّة، وتستعذبه الآذان تقطيعا ورنينا[1]».

وللإمام ابن حزم نوعان من الأسلوب:

أحدهما الأسلوب العلمى الذى كتب به أكثر مؤلفاته لا سيما كتب الخلاف والعقائد مثل كتاب «الفَصْل» «وكتاب «المُحلى» وكتاب «الإحكام فى أصول الأحكام».

والآخر هو الأسلوب الأدبى الذى كان يهتم فيه بالصور البيانية، فيكثر من السجع والاستعارة والكنايات.. ويحرص على أن تكون الكلمات منتقاة، والعبارات متآخية منسجمة يعانق بعضها بعضا. ولقد حوى كتابه: «طوق الحمامة فى الألفة والألّاف» من روائع الأسلوب الأدبى ما جعل بعض المفكرين يرى أنه فى نثره الفنى كان خيرا من أدباء عصره، لأن نثره كان حديث النفس يتصل بالنفس، لا تكلف فيه ولا صناعة واضحة[2] ويجمل بنا أن نقتبس نموذجا من تلك الروائع الأدبية التى زخر بها كتابه «الطَّوق» كى يتسنى لنا الحكم على بدائع نثره، وإشراق منطقه، فى كتاب يعدّ – بحق – فى قمة أدبنا الإسلامى:

(١) سعيد الأفغانى: ابن حزم ورسالته فى المفاضلة ٧٢.

(٢) أبو زهرة: ابن حزم ١٩٨.

لنستمع إليه وهو يصف جارية تعلقت بها نفسه، وملكت عليه شغاف قلبه فيقول:

«ألفت فى أيام صباى، ألفة المحبة، جارية نشأت فى درانا، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودماثتها، عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية من العيوب، دائمة القطوب، حلوة الإعراض، مطبوعة الانقباض، مليحة الصدود، رزينة القعود، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجى نحوها، ولا تقف المطامع عليها، ولا معرس للأمل لديها، فوجهها جالب كل القلوب، وحالها طارد من أمَّها، تزدان فى المنع والبخل، مما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل، موقوفة على الجد فى أمرها، غير راغبة فى اللهو.

على أنها كانت تحسن العود إحسانا جيِّدا، فجنحت إليها، وأحببتها حبا مفرطا شديدا، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة، وأسمع من فيها لفظة، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع، بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شىء البتة[1].

أما الأسلوب العلمى لابن حزم فهو ذلك الأسلوب الذى يهتم فيه بإبراز الحقائق العلمية دون اعتماد على المحسنات البديعية، ومن هذا النوع كتاب الفصل الذى ترى فيه «مسحة التنسيق والترتيب واضحة، وطريقته فى معالجة المواضيع طريقة منطقية صريحة لعله اكتسبها من ظاهريته، فهو لا يؤول كالباطنية، ولا يقيس كالحنفية، ولا يكنى ولا يورى ولا يغمغم بل يمشى قدما واضحا صريحا لا يحمِّل

(١) طوق الحمامة ١٤٤ – ١٤٥، هذه القصة التى يرويها ابن حزم عن حب له، أول ما عرف من كتاب الطوق، وشاعت على نحو واسع، ويعود الفضل فى ذيوعها إلى المستشرق الهولندى رينهارت دوزى (١٨٢٠ – ١٨٨٣م) فلم تكد عينه تقع عليها، حتى أخذ بها، وترجمها فى فرنسية رقيقة، عذبة وصافية، فى كتابه: «تاريخ مسلمى إسبانيا» وعنه ترجمها إلى الألمانية المستشرق الألمانى «شاك» فى كتابه: «شعر العرب وفنهم فى أسبانيا وصقلية» وحين ترجم الأديب الأسبانى خوان فليرا (١٨٢٧م – ١٩٠٥م) هذا الكتاب – الطوق – إلى اللغة الأسبانية أعطى القصة العذوبة نفسها، ورغم ذلك قام المستشرق الأسبانى الشاب فرانسيسكو بونس بويجس (١٨٦٣ – ١٨٩٩م) بترجمتها مرة ثانية من اللغة العربية مباشرة، وقد أثارت القصة جدلا كبيرا حول عفة ابن حزم، وعذرية الحب فى الأندلس (الدكتور الطاهر مكى: الطوق ١٤٤ (هامش).

اللفظ أكثر مما يطيق من معنى، ولا يدعى دعوى إلا أرفقها بشاهدها وأيدها بمروى متسلسل الإسناد[1]»

خصائص أسلوب (ابن حزم):

وهناك خاصيتان يلمسهما القارئ لأسلوب ابن حزم فى كتابه الفصل:

أولا: الوضوح:

وهو من الأمور التى كان ينادى بها ابن حزم ليسهل استيعاب العلوم وفهمها فتعم الفائدة وينتشر الخير، ولقد كان يرى أن معاداة العلوم والجهل بها - مثل المنطق - مرده إلى: »تعقيد الترجمة وإيرادها بألفاظ غير عامية. ولا فاشية الاستعمال، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة، فتقربنا إلى الله ﷻ بأن نورد معانى هذه بألفاظ سهلة، يستوى فى فهمها العامى والخاص، والعالم والجاهل حسب إدراكنا وما منحنا خالقنا تبارك وتعالى من القوة، والتصرف، وكان السبب الذى حدا من سلف من المترجمين إلى إغماض الألفاظ وتوعيرها وتخشين المسلك نحوها، الشح منهم بالعلم والضن به»[2]. ولعل هذا الوضوح الذى عمل له ونادى به ابن حزم يرجع إلى منهجه الذى لم يألف التأويل أو التكنية، أو غير ذلك.. فضلا عن رغبته فى نفع الناس ونشر العلم بينهم، وهذا ما يتفق مع الآثار التى جاءت تحث على تعليم العلم ونشره، وتنهى عن كتمانه والضن به: أليس الرسول ﷺ هو القائل: «من كتم علما ألبسه الله يوم القيامة لجاما من نار[3]» ولا شك أن تعقيد العلم وعدم إيضاح مسائله لون من البخل به لا يتفق مع أخلاق الإسلام التى آمن بها ابن حزم وعاش لها.. وما أجمل ما تقرأ فى ذلك لابن حزم: «... فإن الحظ لمن آثر العلم وعرف فضله أن يسهله جهده، ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكن، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ويدعو إليه

(١) ممدوح حقى: مقدمة تحقيق كتاب حجة الوداع لابن حزم ص ٨ دار اليقظة العربية للتأليف والنشر بدمشق (بدون تاريخ).

(٢) ابن حزم: التقريب لحد المنطق ٨.

(٣) رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣، ٤٩٥ ورواية ابن ماجة: »من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »ابن ماجة (١ / ٩٦ - ٩٨) باب من سئل عن علم فكتمه..

فى شوارع السابلة، وينادى عليه فى مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ويجزى الأجور لمقتنيه ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه، ويسنى مراتب أهله، صابرا فى ذلك على المشقة والأذى، لكان ذلك حظا جزيلا وعملا جيدا وسعيا مشكورا كريما وإحياء للعلم[1]».

ونود أن ننبه إلى أن الوضوح الذى تميز به ابن حزم وضوح نسبى يظهر إذا ما قورنت كتبه بغيرها من الكتب فى عصور تشبه عصر ابن حزم، وفى مسائل فلسفية كالتى عالجها فى كتابه.. أما لو نظرنا للوضوح بمعناه المطلق فإن بعض المسائل التى تعرض لها كتاب الفصل قد تحتاج إلى توقف ونظر مَلّى حتى يستطيع القارئ أن يستوعب دقائقها ويدرك أسرارها، ولا غرو فأنّى للنظرة العجلى أن تفقه كَلَاما هو من الفكر فى ذروته، ومن الفلسفة فى أعمق قضاياها ومشكلاتها؟ ولعل فيما كتبه ابن حزم عن الزمان والمكان وحدوث العالم وغير ذلك دليلا على ما نقول. حيث يجد القارئ العادى شيئا من خفاء المعنى، ذلك الخفاء الذى لا يرجع إلى أسلوب المؤلف بقدر ما يرجع إلى طبيعة الموضوع الذى يعالجه.. ولا شك أن الأسلوب يتأثر بالفكرة التى يصوغها الكاتب، لأن الأساليب ما هى إلا قوالب تصب فيها المعانى فإذا كان المعنى بسيطا جاء الأسلوب – تبعا لذلك – واضحا بينا، وإذا كان المعنى دقيقا غامضا كان للعبارة التى تصاغ به نصيب من ذلك.. واقرأ – إن شئت ما كتبه الغزالى فى كتابه «الأحياء» عن المنجيات وأهميتها، أو عن المهلكات وخطرها، وقارن ذلك – من حيث الوضوح – بمسألة من المسائل العشرين التى تناولها فى كتابه «تهافت الفلاسفة» ليبطل آراءهم ويظهر تهافتهم وهىقضايا فلسفية حاول الغزالى أن يلبسها رداء الوضوح، ولكن هيهات أن تقارن بما كتبه عن الأخلاق أو العبادات فى كتاب «الأحياء».

وهذا الوضوح النسبى الذى نجده فى كتابه الفصل يرجع فيما يرجع إلى أساليب استخدمها مصنفه، وسمات عرف بها، منها:

(١) التقريب ٩.

١ – التكرار: الذى يلجأ إليه ابن حزم ليوضح فكرته ويرسخها فى الأذهان، وذلك كما حدث عندما عرف حد التغاير الصحيح فقال: (هو ما شهدت له اللغة وضرورة الحس والعقل وهو أن كل مسميين جاز أن يخبر عن أحدهما بخبر ما لا يخبر به عن الآخر فهما غيران لابد من هذا، وبالجملة ما لم يكن غير[١] الشيء نفسه فهو غيره، وما لم يكن غير الشيء فهو نفسه[٢]».

ويتعرض للمعنى نفسه فى الصفحة التى تليها فيقول: «حد التغاير فى الغيرين هو أن كل شيء أخبر عنه بخبر ما لا يكون ذلك الخبر، فى ذلك الوقت خبرا عن الشيء الآخر فهو بالضرورة غير ما لا يشاركه فى ذلك الخبر، وليس فى كل ما يعلم ويوجد شيئان يخلوان من هذا الوصف بوجه من الوجوه وهذا مقتضى لفظة الغير فى اللغة[٣]».

وزيادة فى الإيضاح لا يكتفى «ابن حزم» بتحديد معنى «الغيرية» بل يبين اللفظ الذى يقابله فيقول: «وحد الهوية هو أن كل ما لم يكن غير الشيء فهو هو بعينه إذ ليس بين الهوية والغيرية وسيطة يعقلها أحد البتة فما خرج عن أحدهما دخل فى الآخر ولابد، وأيضا فكل اسمين مختلفين لا يخبر عن مسمى أحدهما بشيء إلا كان ذلك الخبر خبرا عن مسمى الاسم الآخر ولابد أبدا فمسماهما واحد بلا شك[٤]» وأحيانا نرى ابن حزم لا يكتفى بذكر المسألة فى كتاب واحد بل يفصلها أو يوجزها فى كتاب آخر من كتبه مما يزيدها إشراقا ووضوحا[٥]..

٢ – الإطناب: حيث لا يكتفى بالقول الموجز إنما يلجأ لبسط القول فى المسألة التى يتناولها مما يجعل المعانى مكشوفة ومحددة قاطعة لا تستعصى على من يريدها بأيسر كلفة وأقل مجهود[٦].

---

(١) هكذا فى الأصل، ولعلها مقحمة.

(٢) الفصل ٢ / ١٣٧.

(٣) الفصل ٢ / ١٣٨.

(٤) الموضوع السابق.

(٥) راجع – مثلا – مسألة النسخ فىكتاب الفصل وكتاب الإحكام، وكتاب المحلى، وغير ذلك كثير يدركه من عقد صلة بتراث ابن حزم.

(٦) راجع أبا زهرة: ابن حزم ٢٠١.

٣ – فهم ابن حزم لما يكتب، وهضمه للفكرة التى يتناولها، لأن تعقيد الأسلوب يأتى غالبا من عدم وضوح الفكرة فى ذهن صاحبها، فلا يحسن الإبانة عنها أو يكون منم عجمة فى اللسان أو القلم فلا يملك وسائلَ التعبير المشرق المبين، وصاحب كتاب «الفصل» كان مسيطرا على موضوعه آخذا بأطرافه، فضلا عن تمكنه من اللغة وقدرته على البيان[١].

٤ – دقة كتابته، وحسن تقسيمها، وحصر موضوعاتها، فهو لا يُدْخِلُ فى موضوع ما ليس فيه، ولا يُدْخِلُ فى جزء من موضوع ما يكون جزءا من غيره، ولا صلة له بما يتكلم فيه، وإذا كانت هناك فكرة تتعلق بموضوعين فإنه يذكرها بتفصيل فى أولهما، وإجمال أو إشارة فى ثانيهما، وذلك ليكون كل موضوع قائما بذاته واضحا من غير أى تصعيب فى طلب الحصول أو التنقيب، فأسلوب ابن حزم العلمى كنفسه وفكره، وكلاهما مشرق واضح[٢].

ثانيا: شدته وعنفه:

أما الخاصية الأخرى لأسلوب ابن حزم فهى عنفه وتجاوزه – فى بعض الأحيان – ما يجب أن يتحلى به العلماء من هدوء فى الحِجَاج، ولطف فى النقاش، برغم أنه أنحى باللائمة فى كتبه على الذين يستعملون الشغب فى الجدال، ويميلون للسب والصياح وذكر أن ذلك ينافى ما ينبغى أن يكون المناظر[٣].. والواقع أنه قليل هم أولئك الذين يلتزمون بما يشترطونه على أنفسهم ولا يجذبهم الخصام إلى ما لا يرتضون..

والواقع أن شدة لهجة ابن حزم، وقسوة عباراته كانت مضرب الأمثال، حتى قيل «سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان»[٤] ومن أراد مثلا على ذلك فليقرأ تعليقه على نسب المسيح عليه السلام الذى ورد فى الأناجيل إذ يقول «قال أبو محمد: فاعجبوا لهذه المصيبة الحالة بهم ما أفحشها، وأوحشها، وأقذرها، وأوضرها، وأرذلها، وأنذلها، متى الكذّاب ينسب المسيح إلى يوسف النجار ثم ينسب يوسف إلى الملوك من

(١) راجع المرجع السابق ٢٠١.
(٢) المرجع السابق ٢٠١.
(٣) انظر: مقدمة كتاب الفصل، وكتاب التقريب لحد المنطق ١٩٧.
(٤) الذهبى: تذكرة الحفاظ ٣ / ١١٤٥.

ولد سليمان بن داود – عليهما السلام – أبا فأبا، ولوقا ينسب يوسف النجار إلى آباء غير الذى ذكر متّى حتى يخرجه إلى ناثان بن داود أخى سليمان بن داود، ولا بد ضرورة من أن يكون أحد النسبين كذبا، فيكذب متّى أو لوقا ولا بد أن يكون كلا النسبين كذبا فيكذب الملعونان جميعا، ولا يمكن البتة أن يكون كلا النسبين حقا، ولوقا عندهم – لوّق الله صورهم وألاق وجوهَهم ولقّاهم البلاء، وألقى عليهم الدمار واللعنة – فى الجلالة فوق جميع الأنبياء عليهم السلام ...[1]» ولكن ما هى الأسباب التى جعلت ابن حزم يلجأ لهذا اللون من العنف؟

لعل تلك الأسباب تتضمن ما يلى:

أولا: الفجوة التى كانت بينه وبين أهل عصره، فهو قد اتهم فى دينه، وهُجِر من قومه هجرا غير جميل، وجافوه وآذوه وتجاهلوا قدره، وحاولوا إخمال ذكره، بل تجاوزوا الحد فأحرقوا ثمار فكره، حرقوا كتبه علنا فى أشبيلية، وإن ذلك ليخرج الحليم عن حلمه، فكيف مَنْ أصيب بعلة أفقدته الحلم، وولّدَتْ عنده ضيقا وقلة صبر، بل أورثته نزقا كما قال عن نفسه[2].

ثانيا: ثقة ابن حزم فى نفسه واعتداده بآرائه، فهو يقول بعد أن ساق الآيات التى تدل على طلب الجدل المحمود:

«قد عَلّمنا تعالى فى هذه الآيات وجوه الإنصاف الذى هو غاية العدل فى المناظرة، وهو أن من أتى ببرهان ظاهر وجب الانصراف إلى قوله، وهكذا نقول نحن اتباعا لربنا عز وجل بعد صحة مذاهبنا لا شكا فيها، ولا خوفا منا – أن يأتينا أحد بما يفسدها، ولكن ثقة منا بأنه لا يأتى أحد بما يعارضها أبدا، لأننا ولله الحمد أهل التخليص والبحث وقطع العمر فى طلب تصحيح الحجة واعتقاد الأدلة قبل اعتقاد مدلولاتها. حتى وقفنا – ولله الحمد – على ما ثلج به اليقين. وتركنا أهل الجهْلِ والتقليد فى رَيبهم يترددون..[3]..» ونعتقد أن فى هذا النص ما يشير إلى روح الاعتزاز والثقة

(١) الفصل ٢ / ١٥.
(٢) ابن حزم: مداواة النفوس ٥٤، وانظر أيضا – أبا زهرة: ابن حزم ٢٠٢.
(٣) الإحكام ١ / ٢٠.

بالنفس التى تكد تصل أحيانا إلى العجب والغرور خصوصا عندما يناقش أحد الأئمة الكبار أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى..

ثالثا: المرض الذى أصابه وتحدث عنه فى كتبه، فهو يقول: «لقد أصابتنى علة شديدة ولَّدَت فى رَبْوا فى الطحال شديدا، فَوَلَّد ذلك على من الضجر وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق أمرا جاشت نفسى فيه إذ أنكرت تبدَّل خُلُقى واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى: وصحّ عندى أنَّ الطحال موضع الفرح وإذا فسد تولَّد ضدَّه[1]».

رابعا: تمكن النصارى واليهود فى بلاد الأندلس وتطاولهم على الإسلام إلى درجة تجاوزوا فيها قدرهم، وتعدوا حدود الأدب والوقار، ولا ريب أن أهل الكتاب فى عصر صاحبنا كانوا من هذا الصنف الذى تستثنيه الآية الكريمة ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٦) ولعل هذا ما جعل بعض الباحثين يلتمس عذرا لابن حزم فى هجومه على اليهود والنصارى ويعتبر ذلك – على حد تعبيره – «من كمال جدله لا من نقصه، ومن أسباب سلامته لا من عيوبه، لأنه فى هذه الحال يدافع عن الإسلام والإسلام حق، وغيره ليس كذلك فما كان يسوغ لنا وهو يدافع عن الإسلام ضد المهاجمين له من أهل الديانات الآخرى أو المنحرفين من الزنادقة أن نفرض أن عند هؤلاء حقا يطلبونه، أو يعلنونه لأن هؤلاء يريدون تشويه الحقائق الإسلامية أو إفساد عقيدة المسلمين أو بث أفكار فاسدة بينهم، إذ هم لا يرجون للإسلام وقارا، ولا يألونه إلا خَبَالًا...[2]».

هذه هى أهم العوامل التى نرى أنها كانت سببا فى شدة ابن حزم وعنف أسلوبه، ولعل فى هذه العوامل ما يجعلنا نلتمس له العذر، خصوصا إذا كان المرض الشديد الذى أصابه من وراء كل مازلت فيه قدم ابن حزم من ضيق وسخط وملال.. على أن البيئة التى عاش فيها ابن حزم لم تكن بيئة منصفة، بل جاوزت حدود الاعتدال عندما سلبت الرجل فضائله وعلمه، وحرقت تراثه وفكره، وماذا يكون موقف العالم عندما يرى كتبه تلتهمها النيران علانية أمام الناس؟ هل كنا ننتظر منه بعد هذا

(١) مداواة النفوس ٥٤.

(٢) أبو زهرة: ابن حزم ١٩٠.

الظلم والتجاهل أن يكون لطيفا فى تعبيره، ليّنا فى موقفه؟ ثم ماذا يضير ابن حزم عندما يتصدى بأسلوب عنيف لليهود والنصارى فى ديار الأندلس؟ أليس هؤلاء النصارى هم الذين عملوا على محو الإسلام من تلك البلاد وطردوا أهله؟ ألم يكن ابن حزم ينظر بظهر الغيب عندما وقف لهؤلاء الأرذال وفضح ديانتهم وكشف ضلالهم، وكان فى موقفه هذا – مع ما فيه من شدة – أرضى لله من أولئك الفقهاء وأدعياء العلم يأكلون على كل مائدة، ويقفون على كل باب تاركين صليبية الأندلس تفعل أفاعيلها النكراء فى الإسلام والمسلمين؟.

هل كنا نلوم ابن حزم لو اشتد – مثلا – على حكام يذكر لنا التاريخ أنهم كانوا يستعينون بالنصارى فى قتال بعضهم بعضا، ابتغاء عرض من الدنيا قليل؟ إن فهم الباحث للظروف والملابسات التى أحاطت بالمؤلف مهمة للوصول إلى الحكم السديد، ونحن عندما نؤرخ للإمام ابن حزم نضع هذه الأشياء أمام نظرنا عندما نحكم له أو عليه.. وأعتقد أننا لو وضعنا فى حسباتنا جانب المبالغة فى هذه الشدة التى تنسب للإمام، وأنه بشر يخطئ ويصيب، رفعنا الرجل إلى درجة سامقة من الإجلال والتقدير.. وما أحرانا أن نتذكر دوما قول القائل:

كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

ومن عجب أن الذين يلومون ابن حزم على شدته وعنفه يقعون فيما ينهون عنه غيرهم، إذ يتجاوزون الحدّ وهم يتحدثون عن الإمام ويذكرونه بعبارات تخلو من العدل والإنصاف فيكونون على حد قول القائل:

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم